الاستعمار وممارساته في كتابات الإبراهيمي؛ عيون البصائر أنموذجا

Colonialism and its Practices in Ibrahim's Oyoun Albasair as a model

د. نورة بن تهامي

جامعة آكلي محند أولحاج – البويرة (الجزائر)

nourabentouhami27@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2022/09/20 **تاريخ القبول:** 2022/09/25

ملخص:

يعدُّ الشَّيخ محمَّد البشير الإبراهيمي مفخرة من مفاخر الجزائر والعالم العربي الإسلامي، ولعلَّ جهوده ونضالاته المتعدِّدة الجوانب خير دليل على ذلك، فقد كانت له حملة صادقة بالقلم واللِّسان للدِّفاع عن وطنه الجزائر، وقد كانت الجزائر شغله الشَّاغل خاصَّة أيَّام الثَّورة الكبرى، إذ كان لا يقر له قرار ما دام للاستعمار أثر في الدِّيار الجزائرية فهو لم يستهدف غزو الأرض الجزائريَّة وحدها، بل تجاوز ذلك إلى محاولة القضاء على شخصيَّة الشَّعب الجزائري، وكانت اللُّغة والدِّين من أهم أولوياته في السَّيطرة، وفي المقابل اختُصِرت رسالة الشَّيخ الإبراهيمي في ثلاث كلمات هي **الإسلام** و**العروبة** و**الجزائر** فجاءت معظم كتاباته تدعو إلى حريَّة العلم والتَّعليم وتَمرُّده عن القوانين الإداريَّة الاستعماريَّة من أجل الحفاظ على مستقبل أبناء الجزائر، ونحن نسعى من خلال هذه الورقة البحثيَّة الإجابة عن التَّساؤلات التَّالية:

ما مفهوم الاستعمار عند الإمام محمَّد البشير الإبراهيمي؟

وما هي المجالات التي أخذت اهتمام الشَّيخ؟

وكيف كان موقفه من الاستعمار الفرنسي؟

الكلمات المفتاحية: الجزائر، الاستعمار، الإسلام، اللُّغة العربيَّة، الانتصار.

***Abstract*:**

Mouhamed Albachir Al Ibrahimi is considered one of Algerian and the Islamic pride, because he has many struggles and efforts. He had a sincere campaign, with tongue and pen, to defend his homeland, especially in the days of the great revolution. As he did not accept a decision as long as the colonizer was in the Algerian lands, because he did not want to invade the Algerian lands alone, but he wanted to destroy the Algerien religion, personality language. Ibrahim's letter was in three words: Islam, Arabism and Algeria. The majority of his writings were about the freedom of science and education and he was against the colonial administration rules in order to preserve the future of Algerien people. In this research paper, we want to answer the following question: what is the definition of Colonialism according to Al Ibrahimi? And what are the fields that he concern on it? And what was his attitude toward Colonialism?

Keywords: Algerien, Colonialism, Religion, Arabic language, victory.

تقديم:

قضى الشَّيخ محمَّد البشير الإبراهيمي حياته كلها في التَّحصيل العلمي، وقد مسَّ تحصيله جوانب علميَّة عديدة، ولعلَّ هذا ما جعل "خطابه يتميَّز بالموسوعيَّة المعرفيَّة الَّتي تطبع ثقافته خصوصا مدى تفتُّحه على ثقافة عصره، وهو الَّذي ورث تكوينا على يد علماء **"تقليديين"**[1] استطاعوا أن يجعلوا منه رجل علم ودين، ولم يتوقَّف الإبراهيمي عند الإرث العلمي الَّذي تلقَّاه على يد علماء وطنه، بل كانت له رحلات علميَّة عديدة، لكن "ما إن استكمل تحصيله العلمي حتَّى عاد إلى وطنه، ليضع علمه وجهوده في خدمة شعبه وليقود جهاده الحضاري وصراعه الفكري ضدَّ الفرنسيين"[2] الَّذين أرادوا تغيير الجزائر وشعبها وقانونها ودستورها إلى ما يخدم مصالحهم، وربما هذا ما زاد الإبراهيمي حبًّا في وطنه وجاءت أغلب كتاباته عنه، حيث "كانت الجزائر شغل خواطر الإبراهيمي، ونجوى سرائره لأنها حازت الحسن كله فكانت **"جمعا"** وكان غيرها **"مفردات"**، فلا عجب – إذا – أن يلقى الأذى في سبيلها لذيذا، والعذاب عذبا، والنَّصب راحة، والحياة لها سعادة، والموت من أجلها شهادة رغم أنَّه لم يملك من أرضها شبرا، وقد لا يحوز في ثراها قبرا"[3] نعم لقد سخَّر الإبراهيمي كل ما يملك للدِّفاع عن الجزائر منذ أن دخل الاستعمار الفرنسي

ديارها، وكان جهاده بالقلم من أجل الدِّفاع عن الجزائر والعروبة والإسلام، فكانت آثاره من أهم الكتابات الَّتي جاءت متضمِّنة دفاعه عن وطنه، متمرِّدة عن الاستعمار الفرنسي وقوانينه وأفكاره، ومن بين هذه الآثار **"عيون البصائر"** الَّتي اتَّخذناها كمدونة في هذا المقال.

أوَّلا/ وقفة عند كتاب "عيون البصائر":

كان البشير الإبراهيمي واسع المعرفة شأنه شأن السَّلف الأوَّل من حملة الثَّقافة الإسلاميَّة، فكتب في الأصول والتَّشريع الإسلامي، وألَّف في اللُّغة وقضاياها الدَّقيقة، وفي الأخلاق والفضائل الإسلاميَّة، وهو كاتب بليغ ذو أسلوب بديع، يحمل نفس مجاهد وروح مصلح، وخيال شاعر، وقوَّة ثائر، وتشهد على ذلك مقالاته النَّارية الَّتي كتبها بقلمه في جريدة البصائر في سلسلتها الثَّانية أطلق عليها اسم **"عيون البصائر"**، فقد "سمى الإمام الإبراهيمي هذه المقالات **"عيون البصائر"**، وإنَّ لكلمة "العين" في لغة يعرب لَمعان كثيرة، منها: العين، نبع الماء، والماء هو مصدر الحياة، فكأنَّ "عيون البصائر" "ماء فكريا" تحيا به العقول، كما تحيا بالماء الحقول، وقد كانت عيون البصائر "ماء حيويا" ضدَّ "الأفكار الميتة" الَّتي يشيعها الطرقيون والضلال، وضدَّ "الأفكار القاتلة" الَّتي يبثها أرباب "المخابر الفكريَّة" الفرنسيَّة، وأتباعهم من "المسلمين""[4] الَّذين خانوا الوطن وانحازوا إلى العدو من غير تدبير ولا تفكير.

لقد كان محمَّد البشير الإبراهيمي من أبرز المجاهدين والمناضلين بالقلم ضدَّ المستعمر الفرنسي، حيث وضع "عيون البصائر، فجاءت جامعة للبيان والعرفان، ومدوَّنة لسيرة الأعداء والخلان يجد فيها القارئ الموسوعة الثَّقافيَّة والأدبيَّة والتَّاريخيَّة والسِّياسيَّة للجزائر بثوابتها في غير تعصُّب، وبطموحاتها واستعداداتها للتوثب"[5]، فالقارئ لعيون البصائر يجد فيها الإبراهيمي الثَّائر عن المستعمر، المجاهد عن الوطن، الرَّجل المتمرِّد عن كل ما يتعلَّق بفرنسا الغاصبة، المدافع عن الجزائر والعروبة والإسلام، حيث "إنَّ معظم هذه المقالات تعرض جوانب من مواقف الإمام الإبراهيمي في وجه ذلك المخطَّط، وتبيِّن مدى شراسة الفرنسيين في تطبيقه، كما تعكس مدى استماتة الإمام في مقاومته، حتَّى أنه ليخيَّل إلى القارئ أنَّ الإمام مقاتل يقاتل لا كاتب يجادل"[6]، ولعلَّ لغة الشَّيخ وأسلوبه المتسم

بالسَّهل الممتنع الممزوج بالصُّورة الواقعيَّة في أرض الجزائر هو الَّذي جعل القارئ عموما والقارئ الجزائري خصوصا يتَّخذ الأثار الإبراهيمية – وعيون البصائر بصفة خاصَّة – مرجعيَّة أساسيَّة عن الثَّورة الجزائريَّة الخالدة ضدَّ المستعمر الفرنسي المستبد، بالإضافة إلى مواضيع أخرى، "فقد كانت هذه المقالات "عيونا" أبصر بها الجزائريون طريقهم، ورأوا بها عدوَّهم، وأبصروا بها حقائق دينهم ودنياهم"[7]، وعن ذلك يقول **"إبراهيم السَّامرائي"** في مقاله (**أصالة العربيَّة في عيون البصائر**): "إنَّ "عيون البصائر" موضوعات تتَّصل بالتَّعليم العربي والدِّين الإسلامي وموقف السُّلطة الحاكمة الاستعماريَّة من ذلك، ودعوة لفصل الدِّين عن الحكومة، وحديث طويل في المشكلات الاجتماعيَّة والسِّياسيَّة، ومعالجة للمشكلة الفلسطينيَّة، وشيء آخر يتَّصل بمشكلات المغرب العربي الكبير"[8]، ولعلَّ هذا ما يجعلنا نقول إنَّ عيون البصائر شاملة؛ فهي تضمَّنت العديد من المواضيع منها المواضيع التَّعليميَّة والتَّربويَّة والدِّينيَّة والسِّياسيَّة على مستوى الوطن وخارجه، ولعلَّ هذا ما يجعلها مرجعيَّة يمكن الرُّجوع إليها كلَّما دعت الحاجة إلى ذلك.

ثانيا/ تعريف الاستعمار عند الإبراهيمي:

يقول الشَّيخ الإمام محمَّد البشير الإبراهيمي: "يا هؤلاء! إنَّ **الاستعمار شيطان،** وإنَّ الشَّيطان لكم عدو فاتَّخذوه عدوا"[9]، لقد استعمل الشَّيخ آلية التَّشبيه البليغ لكي يُعرِّف الاستعمار، وجعله هو والشَّيطان في كفَّة واحدة، كيف لا والشَّيطان هو الَّذي أغوى آدم وحواء – عليهما السَّلام – وأخرجهما من الجنَّة، وبقيت تُلقَّب بأكبر خطيئة على مستوى المعمورة، قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا ءَادَمُ أُسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (35) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾[10]، ولعلَّ ما جعل لهذا التَّعريف قبولا بعد تلقِّيه من طرف القارئ هو استعمال تقنيَّة الاقتباس من القرآن الكريم من طرف الشَّيخ، فكان التَّعريف شاملا دقيقا مختصرا موحيا متَّسما بصبغة جماليَّة تقذف في ذهن القارئ فهما سريعا.

ويقول الإبراهيمي في مقاله (**جمعية العلماء: أعمالها ومواقفها؛ موقفها من السِّياسة والسَّاسة**): "والاستعمار كله رجس من عمل الشَّيطان؛ فغير غريب أن يكون من خصائصه تـغيير الأوضاع والمعاني، ليصحِّح لنفسه الألوهيَّة المزوَّرة ولو إلى حين"[11]، فإذا كان معنى الرِّجس "القذر، الفعل القبيح، الحرام، اللَّعنة، الكفر، العذاب"[12]، فإنَّ الإبـراهيمي من خلال هــذا التَّعـريف للشَّيطان زيادة في توضيحه، حيث بيَّن لنا عمل الشَّيطان بشكل مختصر وفي عبارة مفهومة بطريقة مباشرة.

وباستعماله للمنهج المقارن في بيانه لمعنى الاستعمار "يقول: بأنَّ أصل هذه الكلمة في لغتنا طيِّب ففي القرآن ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾، ولكن إخراجها من المعنى العربي الطَّيب إلى المعنى الغربي الخبيث ظلم لها، والَّذي صير هذه الكلمة بغيضة إلى النُّفوس ثقيلة على الأسماع (...) هو معناها الخارجي – كما يقول المنطق – وهو معنى مرادف للإثم والبغي، والخراب، والظُّلم، والتَّعدي، والفساد، والنَّهب، والسَّرقة، والشَّر، والقسوة، والانتهاك والقتل، والحيوانيَّة (...) إلى عشرات من مئات من هـذه الرَّذائل تفسِّرها آثاره، وتتجلَّى عنها وقائعه"[13]، وهي سمات يتَّصف بها الاستعمار أين ما حلَّ وحيث ما وجد، وأبلغ دليل ما نراه عبر وسائل الاتِّصال في شعوب عديدة منها سوريا والصَّحراء الغربيَّة وغيرهما وعليه يمكن القول إنَّ تعريف الإبراهيمي اتَّسم بالشُّموليَّة في توصيل مفهوم الاستعمار.

وفي مقال: (**قضيَّة فصل الدِّين، ومن فروع هذه القضيَّة: الحج**): يقول الإبراهيمي عن الاستعمار الفرنسي بأنَّه "أخبث أنواع الاستعمار، إن لم يكن في جميع المعاملات، ففيما يتعلَّق بالدِّين الإسلامي على القطع والجزم؛ فقد رأينا رأي العين ما تتمتَّع به الأمم الإسلاميَّة من حريَّة واسعة مرنة في دينها تحت الحكومات الاستعماريَّة"[14]، وفي هذا التَّعريف للاستعمار من طرف الشَّيخ الإبراهيمي حصر معنى الاستعمار في تدخله في الدِّين الإسلامي لذلك وصفه بأخبث أنواع الاستعمار، وإذا تدخل المستعمر في الشُّؤون الدِّينيَّة للمستعمر تصبح المشكلة مشـكلة عقائد وهذا ما يـزيد في الصِّراع بين الطَّرفين الَّذي يوصل إلى نتائج معقَّدة، ولعلَّ هذا ما حصل في الجزائر في عهد الاستعمار الفرنسي، لكن للشَّعب الجزائري وعي مكَّنه من التَّمسك بدينه، وقد كان للإبراهيمي قلم دفاع عن الدِّين الإسلامي في مقالاته.

ثالثا/ الاستعمار في الجزائر بعيون الإبراهيمي:

يصرحّ الإبراهيمي في مقاله (**السِّياق التَّاريخي 1947 – 1952**) عن نية فرنسا في احتلال الجزائر كانت من زمن بعيد، إذ يقول: "تعود أطماع فرنسا في الجزائر إلى ما قبل سنة 1830 بوقت طويل؛ فقد بعث الملك الفرنسي شارل التَّاسع رسالة في 11 مايو 1572م إلى سفيره في إستانبول فرانسو ادونواي (F. de Noailes) يأمره فيها أن يطلب من السُّلطان العثماني سليم الثَّاني أن يتخلَّى – مقابل مبلغ مالي سنوي – عن الجزائر ليعين عليها أخاه دوق أنجو (Le ducd'Anjou) – الملك هنري الثَّالث فيما بعد –"[15]، فتلك هي محاولة فرنسا الأولى في احتلال الجزائر، ومنذ ذلك الوقت بقيت فرنسا تفكِّر وتدبِّر على أمل لها أن تجد خطَّة لاستعمار الجزائر، وعن ذلك قال الشَّيخ الإبراهيمي "إنَّ فرنسا لم تيأس من تحقيق أمنيتها في الاستيلاء على الجزائر، تعدَّدت – منذ ذلك الوقت/1830 – خططها، وتنوَّعت مشروعاتها الَّتي تتحدَّث جميعها عن استعادة هذه البلاد – الجزائر – للمسيحيَّة"[16]، فكانت أولى خطواتها ضرب الجزائر في عقيدتها الإسلاميَّة لتحوُّلها إلى المسيحيَّة، ولم تبق في هذه الفكرة فقط، بل امتدَّ طمعها الاستعماري إلى تحويل اللُّغة العربيَّة إلى لغة ثانية، وللأسف "حقَّق الفرنسيون أملهم باحتلال مدينة الجزائر سنة 1830م، وبدأوا تنفيذ خطَّة محو خصائص الجزائر الحضاريَّة، من دين ولغة ومعالم تاريخيَّة، ليسهل – زعموا – استعادة الجزائر للمسيحيَّة، ولم يتوقفوا عن تنفيذ تلك الخطَّة – ساعة من نهار– طيلة وجودهم بالجزائر"[17]، ولكن للأسف الشَّديد هناك من الجزائريين من قدم لفرنسا خيانة الجزائر طبقا من ذهب، إنهم "فريق غلبت عليهم شقوتهم، وضلُّوا عن علم، وهلكوا على بيِّنة، فانسلخوا من آيات الله الَّتي آتاهم، واشتروا بها ثمنا قليلا، وخانوا الله ورسوله والمؤمنين، وتحيَّزوا إلى الفرنسيين الَّذين اتخذوهم سخريا ضدَّ شعبهم، ووطنهم، ودينهم"[18] ومع ذلك قبلوا ذلك الذُّل والانكسار، واتَّبعوا خطط الاستعمار ضدَّ وطنهم الجزائر.

لقد استعملت فرنسا كل أساليب الشَّر ضدَّ الشَّعب الجزائري، وحاولت المساس بكل ما يتعلَّق بها من عقيدة دينيَّة ومسالك تربويَّة وتعليميَّة وصحيَّة، وقد "تحدَّث الإمام عن سياسة القمع والإرهاب الفرنسيَّة في الجزائر، فكشف دسائسها وصور فضائعها، وفضح

وسائلها، فتناول ذلك الدُّستور في وصفه بـ "الأعرج" الَّذي فرض على الشَّعب الجزائري، وسخِر من ذلك "البرلمان" الأخرس، ومن أعضائه، إذ رفـض أن يسمِّيهم نوَّابا"[19]، كل ذلك لأنَّ الإبراهيمي كان رجلا ثائرا على وطنه، رافضا لأفكار فرنسا أن تطبق في جزائره، كان رجلا لا يهاب ولا يخاف، كان يريد تحويل وتغيير فكرة "يريد الفرنسيون استئصال الجزائريين من الجزائر"[20] ومن خلال كتاباته نـرى أنَّ الشَّيخ الإبراهيمي كان متيقنا بأنَّه يأتي يوم وتهز فرنسا رحالها، وقد تحقَّق ذلك.

رابعا/ مظاهر الاستعمار في الجزائر:

خطَّطت فرنسا لاستعمار الجزائر، وكان لها ذلك، كما اتَّصفت بالجرأة للمساس بأغلب المجالات الخاصَّة بالحياة الاجتماعيَّة للشَّعب الجزائري، وبعدها أبدت تـدخلها في كل مجـال تراه يخدم مـصالحها ويسبب العذاب للشَّعب الجزائري، ومن بين هذه المجالات:

1 – التَّدخل في المجال الدِّيني العقائدي:

دخلت فرنسا إلى الجزائر بالقوَّة، وأوَّل ما أرادت تحقيقه هو التَّدخل في العقيدة الإسلاميَّة، وظلَّ الشَّيخ الإمام محمَّد البشير الإبراهيمي يدافع عن المبادئ الإسلاميَّة "فدعا إلى فصل الدِّين الإسلامي عن الدَّولة الفرنسيَّة، لأنها دولة نصرانيَّة في الجوهر، لائكية في المظهر، وفي كلتا الحالتين لا حقَّ لها في الإشراف على الدِّين الإسلامي"[21] الحنيف، وكان هدف الشَّيخ من ذلك هو حماية الدِّين الإسلامي من أي تحريف، وهو الَّذي يقول في مقاله **(من الحقائق العريانة)**: "جاء الاستعمار الفرنسي إلى هـذا الوطن، كما تجيء الأمـراض الوافدة، تحمل الموت وأسباب الموت، فوجد هذه المقوِّمات راسخة الأصول، نامية الفروع، على نسبة من زمنها فتعهَّد في الظَّاهر باحترامها، والمحافظة عليها، وقطع أئمته العهود على أنفسهم وعلى دولتهم ليكونُنَّ الحامين للموجود المشهود من عقائد ومعابد وعوائد، ولكنَّهم عملوا في الباطن على محوها بالتَّدريج، وتم لهم – على طول الزَّمن بالقوَّة وبطرائق من التَّضليل والتَّغفيل – جزءٌ مما أرادوا"[22]، إذ يبيِّن الشَّيخ الإبراهيمي من خلال هذا القول سياسة التَّفنن في الخيانة من طرف فرنسا المستبدة، فهي تُظهِر حال وهي في الحقيقة تطبق عكس الحال الظَّاهر عليها.

وقد اتخذت فـرنسا الركن الخامس من أركـان الإسلام بابا للدُّخول إلى باقي الأركان الأخرى من جهة، كما جعلته وسيلة للتَّعرف على المسلمين من أجل استعبادهم مـن جهة أخرى، وعن ذلك يقول الشَّيخ في مقاله (**قضيَّة فصل الدِّين، ومن فروع هذه القضيَّة: الحج**): "والحج في نظر الاستعمار أداة مهيأة لاستـعباد الأمم الإسلاميَّة الَّتي أوقـعها القـدر في قبضته، يـصرفـهم بها في مصالحه، ويستخدمهم بسببها في أغراضه، ويسخرهم بها كما تشاء أهواؤه لا كما يشاء الإسلام وتقتضيه حكمته، ويجعل من وجوبه عليهم وسيلة لإخضاعهم وإذ لا لهم واستنزالهم على حكمه، ويجعل من خشيته من اتِّصال المسلمين وتعارفهم مبررا للتَّضييق عليهم"[23]، فهكذا استخدمت فرنسا الركن الخامس من أركان الإسلام – الحج – في خدمة مصالحها.

لم تتوقف فرنسا عند هذه الفكرة – الحج – فحسب، بل كانت لها أفكار أخرى للاستعباد، وعن ذلك يقول الشَّيخ الإبراهيمي في مقاله (**كتاب مفتوح إلى رئيس الجمهوريَّة الفرنسيَّة**): "جاءت فرنسا إلى الجزائر بالرَّاهب "الاستعماري" لتفسد به على المسلمين دينهم، وتفتنهم به عن عقائدهم، وتشكِّكهم بتثليثه في توحيدهم، وتضار في ألسنتهم كلمة "الهادي" بكلمة "الفادي": ذلك كله بعدما أمدَّته بالعون، وضمَّنت له الحريَّة، وكفرت به هناك لتؤمن به هنا"[24]، تلك هي سياسة فرنسا الخائنة.

لم تترك فرنسا أي فكرة دون تطبيق من أجل ضرب العقيدة الإسلاميَّة في الجزائر فقامت بـ "ابتلاع أوقاف المسلمين، والاستيلاء على مساجدهم، وإحالة بعضها كنائس ومتاحف ومستودعات، كل ذلك من أصول الاستعمار، وكل ذلك وقع في القطر الجزائري"[25]، وهذا ما صرَّح به الشَّيخ الإبراهيمي في مقاله (**من الحقائق العريانة**).

لقد كان ضرب الدِّين الإسلامي من أوَّل الأهداف في مخطَّط فرسا، وتليه اللُّغة العربيَّة، وعن ذلك قال أحمد توفيق المدني في مقاله (**الإبراهيمي كان أمَّة، كان جيلا، كان عصرا**...): "وقد ضاقت بالمستعمر السُّبل وعلم أنَّ لا قضاء على هذا الشَّعب إلاَّ بالقضاء على دعامتيه الأساسيتين: العربيَّة والإسلام، فأمعن في محاربتهما، مستعملا كل وسائل

البطش والإرهاب والنِّفاق والتَّلبيس"[26] والكذب المصقول بكل مظاهر الشَّر، وفعلا تمكنت فرنسا من تحقيق ما حلمت به، "فأمَّا الدِّين فقد أصبح من جرَّاء ذلك أشبه شيء بجسد دون روح، اللَّهم إلاَّ بقايا إيمان كإيمان العجائز راسخ في قلوب الشَّعب لا يتزعزع"[27]، ولعلَّ ذلك كان ناتجا من قوة فرنسا من جهة، واستسلام الشَّعب الجزائري لها من جهة أخرى، "وأمَّا لغة العرب، فقد أصبحت لسانا أجنبيا بحكم القانون، ليس له في مدارس الحكومة أدنى نصيب، يعاقب بصرامة معلمه، ويمتهن وينبذ متعلمه، بينما أقبلت النَّاشئة مضطرة على الاغـتراف من مناهل المستعمر فاستمرأتها، واتخذت منها عدتها للحياة"[28]، وللأسف بقيت آثار ذلك إلى يومنا هذا، فإداراتنا تسير باللُّغة الفرنسيَّة، وشمالنا يقدِّس اللُّغة الفرنسيَّة ويتحدَّث بها مفتخرا ودون خجل، ورؤساؤنا يتكلَّمون باللُّغة بالفرنسيَّة في المحافل الدُّوليَّة مع وجود إمكانيات التَّرجمة، والأمثلة عن ذلك كثيرة لا تعدُّ ولا تحصى.

لقد كان "الاستعمار سُلٌّ يحارب أسباب المناعة في الجسم الصَّحيح، وهو في هذا الـوطن قد أدار قوانينه عـلى نشـخ الأحكام الإسلاميَّة، وعبث بحرمة المعابد، وحارب الإيمان بإلحاد، والفضائل بحماية الرَّذائل، والتَّعليم بإفشاء الأميَّة والبيان العربي بهذه البلبلة الَّتي لا يستقيم معها تعبير ولا تفكير"[29]، هكذا كان الاستعمار في نظر الشَّيخ الإبراهيمي من خلال مقاله **(من الحقائق العريانة)**، وهي حقائق ووقائع عاشها الشَّعب الجزائري مع فرنسا ونقلها لنا الشَّيخ الإبراهيمي من خلال "عيون البصائر" بأمانة.

2- التَّدخل في المجال التَّربوي والتَّعليمي:

تختصر رسالة الإبراهيمي في ثلاث كلمات هي: الإسـلام والـعروبة والجزائر، ودافع عن هذه الرِّسالة بكل ما أوتي من قوَّة، حيث "كرَّس حياته لغرس الإسلام في نفوس الأطفال (عبر المدارس)، وتقويته في قلوب الشَّباب (عبر النَّـوادي)، وإنـعاش عـقول الـكهول به (عـبر المساجد)، حتَّى تـصبح الأمَّـة متـماسكة البناء، متضامنة الأعضاء، وتستطيع هكذا الخروج من الانحطاط الضَّارب، وإخراج المحتل الغاضب"[30]، وبهذا يكون الإبراهيمي قد ركز على بثِّ حبِّ العلم والتَّعلُّم لترسيخ الإسلام في كل فئات المجتمع الجزائري من خلال تأسيس المدارس لفئة الأطفال، والمحافظة على شخصيَّة الشَّباب عن طريق النَّوادي، وتبيان

ونـشر الــوازع الدِّيني عند فئة الكهول من خلال حضور حلقات العلم في المساجد، لذلك قال عنه **"محي الدِّين صابر"** في مقاله **(محمَّد البشير الإبراهيمي والدَّعوة القوميَّة)**: "كانت معركة إثبات الحرف العربي من أهم المعارك الَّتي خاضها الشَّيخ الإبراهيمي الَّذي نجده في معظم كتاباته يحظ على فتح المدارس، ويدعو إلى نشر التَّعليم العربي بكل الوجوه، ويدافع عن حريَّة هذا التَّعليم وتمرُّده عن القوانين الإداريَّة الاستعماريَّة الَّتي كانت تعمل على تمجيده وإعاقته، وذلك حفاظا على مستقبل أبناء الجزائر، وخوفا مما كان يتهدَّدهم من سياسة الفرنسة والادماج الَّتي ينفذُّها الاستعمار"[31]، ذلك لأنَّ الإبراهيمي كان متأكد بأنَّ التَّزوُّد بالعلم سلاح في وجه العدو، فهو "مقتنع أنَّه لا شيء يهيئ الأمَّة للأعمال الجليلة ويعدها للـمشروعات العظيمة كنشر الـعلم، الَّذي يمحو الجهل، ويطرد الخرافة، ويحرِّر العقل، وينجح العمل، ويزكِّي النَّفس"[32].

لكن فرنسا الغاصبة وضعت خطتها الَّتي تهدم بها أسس التَّعليم في بلاد المسلمين، وعن ذلك قال الشَّيخ الإبراهيمي في مقاله **(كتاب مفتوح إلى رئيس الجمهوريَّة الفرنسيَّة)**: "جاءت بالمعلم "الاستعماري" ليفسد على أبناء المسلمين عقولهم، ويلقي الاضطراب في أفكارهم، ويستنزلهم عن لغتهم وآدابهم، ويشوِّه لهم تاريخهم، ويقلِّل سلفهم في أعينهم ويزهدهم في دينهم ونبيهم، ويعلمهم – بعد ذلك – تعليما ناقصا: شر من الجهل"[33] وأصبح التَّعليم في الجزائر بلغة المستعمر الظَّالم، إذ أيقـن المحتل أنَّ القرآن واللُّغة هما الدَّعامتان الأسـاسيتان للشَّعب الجزائري، وبزوالهما يتحقَّق له النَّصر، وعن ذلك قال أحد الحكَّام الفرنسيين في الجزائر بمناسبة احتفال فرنسا بالعيد المئوي لاحتلال الجزائر: "إنَّنا لن ننتصر على الجزائريين ما داموا يقرؤون القرآن ويتكلَّمون العربيَّة، فيجب أن نزيل القرآن من وجودهم، وأن نقتلع العربيَّة من ألسنتهم"[34]، وسعى المستعمر جاهدا للوصول إلى مبتغاه لكن لم يستطع، ذلك لأنَّ القرآن محفوظ، وقد جاء ذلك في قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [35]، ولأنَّ القرآن نزل بلغة الضَّاد فهي محفوظة بحفظه.

3 – التَّدخُّل في المجال الصِّحِّي:

بعد أن تمـكَّن الاستعـمار الفرنسي مـن التَّدخـُّل في الشُّؤون العقائديَّة للمسلمين ومجال التَّربية والتَّعليم، حاول أيضا تسيير المجال الصِّحِّي وفق ما يخدمه ويخدم مصالحه، وعن

ذلك يقول الإبراهيمي في مقاله (**كتاب مفتوح إلى رئيس الجمهوريَّة الفرنسيَّة**): "وجاءت بالطَّبيب "الاستعماري" ليحاري على صحَّة أبنائها قبل كل شيء، بآية أنَّه لا يكون إلاَّ حيث يكون الأوربيون، لا في المداشر الَّتي يسكنها الألوف من المسلمين وحدهم، ولا في القبائل المتجاورة الَّتي تعد عشرات الألوف منهم"[36]، وهي طريقة غير مباشرة لقتل المسلمين وتعذيبهم من جهة، وإدارة سلطته في السِّلك الصِّحِّي من جهة أخرى، حيث يقول الإبراهيمي "أمَّا هذا الطَّبيب الاستعماري بالنِّسبة إلى المسلمين فكأنَّما جاء ليداوي علَّة بعلل، ويقتل جرثومة بخلق جراثيم، ويجرِّب معلوماته فيهم كما يجربها في الأرانب، ثم يعيش على أمراضهم الَّتي مكن لها الاستعمار بالفقر والجهل"[37]، تلك هي الأساليب الشَّنيعة الَّتي اتخذها الاستعمار الفرنسي ضدَّ الشَّعب الجزائري أثناء فترة الاستعمار، وقد صدق الإبراهيمي عندما قال **"والاستعمار كله رجس من عمل الشَّيطان"** لأنَّ كل أعماله وأفعاله حرام وكفر ولعنة وعذاب، لقد جاءت فرنسا "بالمعلم والطَّبيب والرَّاهب، بعد أن أجرت لهم عمليَّة التَّلقيح بمادَّة "الاستعمار"، وهي مادَّة من خصائصها تعقيم الخصائص، فلم يبق المعلِّم معلِّما علميا، ولا الطَّبيب طبيبا إنسانيا، ولا الرَّاهب أبا روحيا، وإنما جاؤوا في ركاب الاستعمار ليخدموه ويثبتوا أركانه"[38] بعد أن جُردوا من مبادئهم ومحوا شخصيتهم واتَّبعوا سياسة فرنسا الغاصبة بحذافيرها من غير نقاش ولا جدال.

خامسا/ يقين الإبراهيمي من تحقيق الانتصار:

من خلال كتابات الشَّيخ الإبراهيمي نلاحظ أنَّه كان متتبعا ومسايرا للثَّورة الجزائريَّة الخالدة خطوة بخطوة، حيث يعرف متى يتراجع المستعمر ومتى يتقدَّم، وعندما لمس تراجع فرنسا قال في مقاله (**أنا**): "ولما ضاقت فرنسا ذرعا بأعمالي ونفذ صبرها على التَّحديات الصَّارخة لها، وأيقنت أنَّ عاقبة سكوتها عنا هو زوال نفوذها وخاتمة استعمارها"[39]، والنَّصر لمن دافع عن الحق بجهاده في سبيل الله، وليس النَّصر لمن اتَّسم بالقوَّة، ولا قوَّة في هذا الكون إلاَّ قوَّة الله العزيز الحكيم. وقد قال في حجاجه للاستعمار: "يا حضرة الاستعمار! إنَّنا إذا حاكمناك إلى الحق غلبناك، وإذا حاكمتنا إلى القوَّة غلبتنا، ولكنَّنا قوم ندين بأنَّ العاقبة للحق لا للقوَّة"[40]، ولعلَّ ما دفع الشَّيخ الإبراهيمي للإدلاء بهذا القول هو يقينه

الصَّادق وبصيرته الصَّافية الَّتي وهبها الله له، وعن الثِّقة في النَّفس، والثِّقة في الشَّعب الجزائري يقول: "إنَّ هذه الأمَّة أنجبت الجندي الَّذي يحرس الحق لا الجندي الَّذي يخرس الحق"[41]، وفعلا لولا جهاد شهدائنا الأبرار الَّذين ضحوا بالنَّفس والنَّفيس في سبيل تحرير الجزائر لما خرس الحق، فقد كانوا حرَّاس للحق والوطن.

وحتَّى يؤكِّد الإبراهيمي للاستعمار الفرنسي من خروجه من الجزائر، يقول: "...ولهدينا بالفطرة إلى الطَّيب مـن القول، وهي أنَّ الجزائر ليست فرنسيَّة، ولن تكون فرنسيَّة، كلمات قالها أوَّلنا، ويقولها أخرنا، ومات عليها سلفنا، وسيلقى الله علينا خلفنا"[42]، فحبُّ الوطن من الإيمان، والشَّعب الجزائري رُزِق بهذا الحبِّ من طرف الرحَّمان، فالجزائر أوَّلا وآخرا وأبدا.

لقد كان الشَّيخ محمَّد البشير الإبراهيمي رجل دين وعلم، كان مجاهدا بالقلم، مناضلا ناصحا جريئا شجاعا، وهو الَّذي "قال مخاطبا الشَّعب الجزائري: إنَّ القـوم – الفرنسيين – لا يـدينون إلاَّ بالقوَّة، فاطلـبها بأسبابها، وأتها مـن أبوابها، وأقوى أسبابها العلم، وأوسع أبوابها العمل، فخذها بقوَّة تعش حميدا وتمت شهيدا"[43].

خاتمة:

من خلال ما تمَّ تقديمه في هذا المقال الموسوم بـ "الاستعمار وممارساته في كتابات الإبراهيمي؛ عيون البصائر أنموذجا" يمكن القول إنَّه قد تمَّ الوصول إلى النَّتائج التَّالية:

- الإبراهيمي رجل علم ودين، جاهد وناضل بفكره وقلمه من أجل تحرير وطنه الجزائر كما أبدى تمرُّده على القوانين الفرنسيَّة بكل شجاعة.
- يعدُّ كتاب **"عيون البصائر"** مرجعيَّة خاصَّة بالثَّورة الجزائريَّة، لأنَّه تضمَّن العديد من المواضيع الَّتي كانت من اهتمامات الشَّيخ الإبراهيمي.
- كان تعريف الإبراهيمي للاستعمار مستمدا من القرآن الكريم، حيث قال "الاستعمار رجس من عمل الشَّيطان" وهذا ما جعله شاملا بليغا سريع الفهم.
- مسَّ مخطط الاستعمار الفرنسي العديد من مجالات الحياة الاجتماعيَّة للشَّعب الجزائري، وقد كان تدخله في المجال الدِّيني العقائدي، والمجال التَّعليمي والتَّربوي، والمجال الصِّحِّي.
- رغم كل ما طبقته فرنسا على الشَّعب الجزائري من تشريد وتعذيب وظلم واستبداد إلاَّ أنَّ الشَّيخ محمَّد البشير الإبراهيمي عبَّر عن يقينه من الانتصار بكل حريَّة وشجاعة.

الهوامش والإحالات

[1]– ينظر: أحمد طالب الإبراهيمي: عيون البصائر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1997، ص16

[2]– المصدر نفسه: ص 24.

[3]– أحمد طالب الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت ط1، 1997م، ص 21.

[4]– أحمد طالب الإبراهيمي: عيون البصائر، ص 33/32.

[5]– المصدر نفسه: ص 17.

[6]– أحمد طالب الإبراهيمي: عيون البصائر، ص 25.

[7]– المصدر نفسه: ص 33.

[8]– الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه، دار الأمة، الجزائر، ط2، 2012م، ص 220.

[9]– أحمد طالب الإبراهيمي: عيون البصائر، ص 7.

[10] – سورة البقرة: الآية: 35، 36.

[11]– أحمد طالب الإبراهيمي: عيون البصائر، ص 59.

[12]– قاموس إلكتروني: المعاني؛ لكل رسم معنى.

[13]– أحمد طالب الإبراهيمي: عيون البصائر، ص 18.

[14]– المصدر نفسه: ص 75.

[15]– المصدر نفسه: ص 23.

[16]– ينظر: المصدر نفسه: ص 23.

[17]– المصدر نفسه: ص 23.

[18]– المصدر نفسه: ص 24.

[19]– المصدر نفسه: ص 29.

[20]– المصدر نفسه: ص 31.

[21]– المصدر نفسه: ص 26.

[22]– المصدر نفسه: ص 47.

[23]– المصدر نفسه: ص 75/74.

[24]– المصدر نفسه: ص 96.

[25]– المصدر نفسه: ص 51.

[26]– الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه، ص 41.

(27)– المرجع نفسه: ص 41.

(28)– المرجع نفسه: ص 41.

(29)– أحمد طالب الإبراهيمي: عيون البصائر، ص 47.

(30)– ينظر: أحمد طالب الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ص 20.

(31)– الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه، ص 117.

(32)– أحمد طالب الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ص 27.

(33)– أحمد طالب الإبراهيمي: عيون البصائر، ص 96.

(34)– أحمد طالب الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ص7.

(35)– سورة الحجر: الآية 9.

(36)– أحمد طالب الإبراهيمي: عيون البصائر، ص 97/96.

(37)– المصدر نفسه: ص 97/96.

(38)– المصدر نفسه: ص 97.

(39)– الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه، ص 27.

(40)– أحمد طالب الإبراهيمي: عيون البصائر، ص 10.

(41)– المصدر نفسه: ص 10.

(42)– المصدر نفسه: ص 7.

(43)– المصدر نفسه: ص 30.